

## الماضي والحاضر

للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

لقيت مرة صديقاً قديماً أثيراً عندي فسألني : « يا أخي أين أنت » قلت : « حيث تراني » قال : « إنا لا نجدك في أي مكان » قلت : « ذلك لأنك تبحث عني في حيث يوجد الناس عادة ، وأنا لا أحب أن أكون حيث يكثر الناس ويزدحمون كاللواتي في الحظائر »

بعد هذه الفاتحة ذهبنا نتمشى واستطردنا في الطريق من حديث إلى حديث فكان مما أذكر أنني قلته له أنني حررتُ كهذا الهواء لاسلطان لأحد على غير طبيعتي — أعمل ما أشاء ، وأترك ما لا أرضى ، ولا أكون في أي حال إلا على هواي . وأنا حريص على هذه الحرية الشخصية وضئين بها وفي سبيلها ومن أجلها أهل ما يعني به الناس غيري ، وأصرف نفسي عما تتلقى به النفوس مخافة أن يجني ذلك على حريتي ولو استطعت أن أبت سلتى بالعالم وأحيا بمزله عنه لفعلت

وكان صديقي يسميني أفشر وأمر على هذا النحو ، فيقول : « صحيح صحيح » ولم أكن أعلم في تلك الساعة أنني أفشر أو أمر ولا كان تصدى إلى شيء من ذلك ، وإنما كنت أتكلم بأول ما يجري في الخاطر كما هي عادة الناس حين يتحدثون ، فقلما يكلف الناس أنفسهم في المجالس عناء يستحق الذكر في التفكير فيما يقولون وعدت إلى البيت وخلوت بنفسي وشرعت أراجبها وأحاسبها قبل النوم على عادي فاني أعني في آخر كل ليلة بتدبر ما كان مني في يوم ، وأكره أن أنام قبل أن أفرغ من هذا الحساب ، وما دامت صفحة اليوم قد انطوت فلماذا أبقها مفتوحة . فأنا كاللناجر أو البنك الذي يجب أن يسوى حسابه يوماً فيوماً ويصفي ماله وما عليه في آخر كل نهار

وفي ساعات هذا الحساب الليلي الذي لا يحسه أو يدري به أحد ، يجيل إلى أنني أخرج نفسي وأجلسها وأجلها أمامي وأقدم لها سيجارة أو أناولها فنجان قهوة وأحسبها وألطفها أولاً كما يقضى بذلك الذوق والأدب بين التمدنين ، ثم أفرك كفي وأقول لها

بإتسامة عربضة : « والآن تعالي نتحاسب قليلاً » فتمتمض أو على الأسح لا يبدو عليها أنها تراح إلى هذا الحساب الذي لا أختار له إلا وقت النعاس ، ولكنها لا تبدي لي هذا النفور بل تبسم متكلمة مثلي وتقول : « ألا ترى أن الوقت متأخر قليلاً » فأقول : « أشكر لك هذا الرفق ولكننا ما زلنا قبل نصف الليل فلا بأس من حديث قصير » فتقول : « ولكنك تمبت في يومك ... اشتغلت كثيراً وكددت رأسك جداً ، فخير لك أن تراح وفي الصباح ... قبل طلوع الشمس تكون قد استمدت نشاطك واتتمشت فنستطيع أن نتحدث كما نشاء ... هذا فيما أعتقد خير لك » فأقول لها : « إنك يا نفسي طول عمرك رقيقة عطوف ولولا هذا لما رضيت أن أتخذك ولما طالت بيننا الصجبة إلى اليوم ولكن لماذا نرجى إلى الغد ما نستطيع أن نفعله اليوم كما يفعل التلميذ البليد » فتقول : « إن المدارس لا تعلم حكمة الحياة وليس صحيحاً أن على الانسان أن يتقى إرجاء ما يمكن عمله وإنما الحكمة أن يرجى إلى غد كل ما يمكن أن يرجئه مما يريد أو يجب أن يفعله اليوم ، ولا سبيل إلى الراحة في الدنيا بغير ذلك وإلا صرنا كآلات لا نستطيع أن ننم بحياة أو أن نحس لهاطماً وأصبحنا كالذي زعموا أن زوجته فتحت له دكاناً وأقامته فيه وحده ولم يكفها هذا فجملت تكلفه أن يعمل كل ما يخطر لها فأصبح الرجل لا يعرف رأسه من رجله فهو أبدأ رائح غاد بمعمل في الدكان أو في البيت أو يجري في الطريق ليقضى حاجة مستعجلة فشكا إلى بعض إخوانه ما يجشمه زوجته من الجهد والكرب وما تحرمه من الراحة فسأله صديقه ولماذا لا تطلقها وترج نفسك من هذا المناء كله ؟ فكان رد المسكين : « وهل تركت لي وقتاً أطلقها فيه »

فضحكت فقالت نفسي : « إنك تضحك ولكن هذا حال من يقبل على العمل إقبالك ويعمل بما علموه في المدرسة من عدم إرجاء ما يمكن عمله »

وتظل نفسي تجاورني وتداورني على هذا النحو وبأمثال هذه السفطة تهرب من الحساب فيضيق صدري بها وأم بزجرها بنف لولا أن هذا لا يليق وأقول الحق إنني أساعدها أحياناً على الهرب لأنني في تلك الأحيان أشعر بأن الحساب سيكون عسيراً علي أيضاً وأن الموازين ليست خفيفة عندي

وعلى أنها تبقى بعد ذلك حواجز إلا إذا غارت البحيرة كلها  
واختفت من الدنيا

وخيل إلى وأنا أفكر في هذا أن طبيعتنا أو فطرتنا تجعلنا  
في حياتنا خاضعين لسلطان يد أو أيد تمتد إلينا من وراء القبور  
وأن الماسخى هو الذى يسيطر علينا لا الحاضر وأنه ليس لنا أن  
نتجه في سيرنا في هذه الدنيا إلا إلى حيث تدبرنا هذه الأيدي  
الخفية التى تمتد من ظلام الماضى

وتذكرت وأنا أدبر هذا المعنى فى رأسى كيف تزوجت ،  
وأقص الخبر لأن له دلالة وعلاقته بهذا المعنى . كنت صبياً فى  
الرابعة أو الخامسة — لا حين تزوجت من فضلكم — فزارنا  
خالى وامرأته ومعهما طفلة لها من الله بها عليهما فتناولها أبى  
ووضعهما على حجره وقبلها ، وأخذ يداعبها ويلس خدها الطري  
الصغير بأصبعه الناشف الكبير لتبسم ثم ردها إلى أمها ونظر  
إلى أبى وقال : « هذه إن شاء الله لابننا »

ولم أتهد أنا هذه الجلسة فقد كنت فى الكتاب ولكنهم  
دعوني حين سمعت إلى رؤية « عمروسى » فلم أزد على النظر  
إليها ثم انصرفت عنها غير عابئ بها لأنها لا تستطيع أن تلاعبنى ولم  
أكن أعرف فى ذلك الوقت أن هذه التى احتقرتها هى التى ستكون  
زوجتى يوماً ما . ولو أن أحداً بيّن لى هذا يومئذ وكشف لى  
عن الغيب فيه لما فهمته . وقد قصت أبى على ما دار فى هذه  
الجلسة فيما بعد ولم يخطر لى قط أن أشك فى صدقها ، فقد كانت  
رحمها الله لا تكذب . ولا تعرف المحاورة والمداورة أو اللف إلى  
أغراضها . وقد مات أبى بعد سنوات قليلة ولم يمض لينعم بهذا  
الزواج الذى رتبته وقرره لابنه الداهل فى طفولته . ولكن  
ابنه — وأعنى نفسى — ظل بعد أن سمع هذا الحديث وعرف  
رغبة أبىه يدور فى نفسه أن أباه كان يشتهي أن يزوجه هذه  
الصغيرة بعد أن يكبرها فأتجهت نفسى مع هذا الخاطر وصرت أنظر  
إلى بنت خالى نظرتى إلى زوجتى المستغلة . وكانت امرأة خالى  
على عادة بعض الأمهات — تبديها لى آرة وتحجبها عن آرة  
فأعترت هذه المحاورة ثمرتها وتملقت نفسى بالفتاة وصبوت إليها  
فلما صرت ذا عمل أكسب منه رزقى حققت رغبة أبى وهكذا  
سيطرت على إرادة أب مات قبل سنوات عديدة ، وقولوا ماشتم

وفى تلك الليلة قلت لها بلهجة رقيقة : « هل كان من  
الضرورى جداً لسعادتك أن تجرى لسانى بهذا الكلام  
الفارغ »

فسألتنى : « أى كلام فارغ » فقلت : « أبى حر كالهواء  
وإنه لا سلطان لأحد على أبى وإبنى إلى آخر ما أطلقت به لسانى  
من الهراء »

فقلت منهية : « إن هذه لهجة فى خطاب النفس لا أظنها  
لائقة »

فقلت بضجر : « لا تحاوربنى كما يفعل هذا الضمير المتعب »  
فعمزت بينها إن هس لثلا يتنبه الضمير الرافد فتكون  
ليلتنا سوداء ثم قالت بصوت مسموع : « ولكن أى كلام ليس  
أكثره على الأقل فارغاً »

قلت : « صحيح ولكن أبى حر كالهواء؟ هذا لا يطاق ولا أدرى  
كيف أزدرد صديق بلا اعتراض »

قالت : « إيمان الصديق لم يفهم أو لم يدرك حق الإدراك  
وأما إنه فهم وأثر المجاملة وإتقاء المصادمة أو هو كثيره يفسر  
ويعمر فهو يحمك جميل الصبر على فشرك لترده إليه حين يفشروه »  
فكادت تفجمنى ولكنى كبرت وقلت : « ولكنى لا أحب  
أن أكون فشاراً »

قالت : « لا عليك فما أراك كنت فشاراً جداً . إن كل  
ما قلته هو أنه لا سلطان لأحد عليك غير طبيعتك وهذا صحيح  
وهو بصدق فى كل حالة وعلى كل إنسان »

فسكت وماذا عسى أن أقول ، وخطر لى أنى قد أبهى ماشئت  
بحرتهى المزعومة فى التصرف فلن أكون إلا مخادعاً لنفسى فى  
حقائق الحياة وما دام أبى مسير بطبيعتى التى تسيطر على وتوجهنى  
فأنا لا أستطيع أن أكون إلا ما تسمح لى به هذه الطبيعة فأنا  
أبداً مفيد بها وفى سجن منها لا باب له ولا أمل فى فكك  
أو خلاص فى هذه الدنيا . وقد تنور نفسى وتمور عواطفى وتفور  
خواطرى ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا بالقدر الذى  
تسمح به طبيعتى الخاصة وإلا فى محيط هذا السجن . وهما تكبر  
البحيرة وتمظم فان لها من شطائنها حواجز ولا بد من زلزال  
يفير معالم الأرض لتغيير هذه الحواجز أو توسيعها أو إبعادها

في تأويل ذلك ، فلن تخرجوا به عن كونه مظهراً لتحكم الموتى في الأحياء

ومنذ بضع سنوات قليلة دعاني صديقي الأستاذ سليم بك حسن العالم الأثري المشهور إلى زيارة ما كشف عنه من الآثار القديمة عند الحرم في المنطقة التي اتخذتها الجامعة لحفائرها ، وقد طاف بنا ساعات طويلة وهو يشرح ويفسر ، ولكنه لم يستوفني من كل ما رأيت سوى أترين أو نوعين من الآثار : فأما الأول فجدران بيوت قديمة لعلها كانت سكنى لكهنة المابدأ وخدمهم ، وقد وقفت مدهولاً أمام هذه الجدران فقد سكنت بيوتاً جدرانها مدهونة على هذا النحو وبهذه الألوان عينها . والذين سكنوا البيوت القديمة قبل أن ترتفع هذه المائر الجديدة يعرفون ولا شك كيف تدهن الجدران من الداخل باللون الأبيض أو الوردى أو الأزرق ، وكيف يجرى خط عريض بلون آخر كالخزام للجدار وفوقه خط آخر ، وتحت هذين على مسافة عشرين سنتياً أو نحو ذلك خط عريض آخر ، وكيف يملأ ما بين الخطين العريضين بالرسوم أو النقوش أو يترك ما بينهما بيانياً

هذا الذوق في زخرفة الجدران ليس جديداً وإنما هو ذوق انحدر إلينا وورثناه من آلاف السنين وعشرات القرون . وقد طفت علينا في السنوات المشر الأخيرة موجة من الغرب ، فنحن تقلده في هندسة البناء وفي طراز الزخرفة ، ولكننا بدأنا نستنكر أن نظل مقلدين ونستهجن أن نفقد بذلك خصائصنا القومية وذوقنا الخاص الذي تتميز به بين الأمم . وعسير أن يتنبأ المرء بما تؤدي إليه هذه النزعة الجديدة إلى التحرر من أسر الغرب والرغبة في أن ترجع إلى ما تمليه علينا طبيعتنا ومزاجنا القومي الخاص ، ولكن المهم أن هذا التقليد ليس إلا نتيجة الشعور بقوة الغرب وضعفنا حياله وتوهمنا من أجل ذلك أن كل ما درجنا عليه مظاهر للتأخر ، وأن بقاء ذلك معنا بقاءً متأخرين فيجب إذن أن نمجّل بتغييره بل بمحوه . ولكننا سنستقر على الأيام فنقلب علينا خصائصنا أو تؤثر على الأقل فيما ننقله ونقلد به الأمم الأخرى . وما الحاجة إلى الذهاب إلى الحرم للمثور على مثل لتحكم الميت في الحى وسيطرة الماضى على الحاضر؟ هذه الأديان كلها في الدنيا جميعها أمى وليدة المصر الحاضر؟ الاسلام والمسيحية واليهودية والبوذية

والكونفشيوسية وغيرها ، أحدثها يرجع إلى أكثر من خمسة عشر قرناً . ولست أصدق أن في الدنيا ملحداً بالمعنى الصحيح ، ورافضاً لكل دين وكل عقيدة . كان لى صديق لا يزال يقاخر بأنه ملحد لا يؤمن بشيء ، وكنت ألومه وأقول له ماذا يعنى الناس منك إذا كنت تؤثر لنفسك أن تكون ملحداً . الحد ما شئت فان هذه جنازتك كما يقول الأنجليز ، ولكن أرح الناس من الأتقال عليهم بهذه الآراء التي لا يرتاحون إليها . فكان بضحك منى ويصر على حماقة الفاخرة بشدة إلحاده . ومضت سنوات والتقينا على ظهر باخرة ذاهبة إلى جنوه ، واضطرب البحر عصر يوم ومانا لجه بالزبد ، وأنا ممن لا تدور رؤوسهم في البحر مهما بلغ من اصطحاب أمواجه ، ولكن صاحبي الملحد أصيب بدوار شديد ألزمه سريره ، فقلت أزوره لأطمئن عليه ولأرى ماذا أستطيع أن أصنع له ، فدخلت عليه فألقيته ممتنع اللون جداً من طول ماجشأت نفسه ونهضت بلا انقطاع تقريباً ، وكان مغمض العين ولكن شفثيه كانتا تتحركان أو تحتلجان بما لا أسمع من فرط الخفوت ، فلت عليه لأسمع ما هو قائل حتى كادت أذنى تفس فه ، فاذا به يذكر الله ويتوسل إليه أن ينقذه ويخفف عنه . وقد ترددت بعد ذلك ، أعيره بما سمعت منه أم أدعه لنفسه؟ ثم رأيت أن أتركه وشأنه وأن أديع الأيام ترده إلى آثران الحكم واجتتاب التطاول بعقله القاصر المحدود على مالا يدرك

ولفاننا ... أليست شجرة أصلها في الماضى السحيق ... وكل لفة تتحكم في عقول أبنائها وتصوغها لهم ونصبها في قوالها ، ونحن نفكر على طريقة خاصة يضطرنا إليها احتياجنا إلى التعبير وفق أحكام خاصة للفتنا الموروثة بألفاظها ونحوها وصرفها وتراكيبها وقوالها ومجازاتها ، أى أننا نفكر على نحو ما كان يفكر الأقدمون من أبناء هذه اللغة . ولا سبيل إلا إلى ذلك ولا مهرب منه ونظام الوقف ماذا هو ... إنه ليس إلا نظاماً يستطيع به رجل مات أن يحكم إرادته بعد زواله وخروجه من الدنيا في أجيال متعاقبة من الأحياء . ومن كان يشك في أن الموتى يتحكمون في الأحياء فلنذكر هذا الوقف . رجل له مال سيتركه ويرحل عن الدنيا وكأنما يمز عليه أن يده سترتفع وأن ماله ستتولاه أيد غير يديه فينشى وفقاً يقضى فيه بأن يرث الكور ولا يرث الاناث

أمة واحدة، فإذا قام داع إلى جديد في إنجلترا فإن صوته يسمع في الوقت نفسه في مصر والصين، وقد لا يحدث في مصر والصين مثل الأثر الذي يحدث في بلاده؛ والأمر في هذا يرجع إلى درجة التهذيب في كل شعب ومبلغ استمداده لتقبل الدعوات الجديدة لا إلى بطء وصول الدعوة، ومن هنا قلت حاجة الأمة إلى داع خاص من أبنائها، لأن كل داع إلى جديد في أي قطر تبلغها دعوته كما تبلغ أهله، ومن هنا أيضاً صار التطور في زماننا أسرع لأن وسائل التبليغ والالحاح على الشعوب صارت أسهل وأسرع وأقوى وأفضل، وحسبنا الصحف والمطابع والاذاعة اللاسلكية مما لم يكن له وجود في الماضي

رأيت منذ أيام سيدة عجوزاً من معارفنا تمشي في الطريق مع زوجها الهرم وفتاتها الناهد، وكنت أعرف هذه الأسرة شديدة الحرص على تقاليد الحجاب. ولكن الزمن جرفها بسرعة التطور الحادث فيه فخرجت الأم العجوز سافرة تنافس بنتها الحديثة في الزينة وسار معهما الأب الهرم لا ينكر شيئاً من هذا الذي كان مثله قبل عشر سنوات يدفعه إلى التفكير في القتل. فهذا مثال لسرعة التطور من جراء السهولة التي تصل بها الموجات الجديدة من الأمم الأخرى

وأعود الآن إلى بداية الكلام فأقول إن هذه الخواطر وأمثالها أرتنى أن الحرية التي أزعمني ناعماً بها في حياتي أكثرها وهم ومخالفة للنفس في حقائق كبيرة، والقصد على العموم أولى وأسلم، وإن الحياة لأمر، وكثير على الأسير أن ينادى أنه حر طليق وفي يديه الحديد وله حين يتحرك صلصلة ورنين  
ابراهيم عبد القادر المازني

أطلب مؤلفات  
الاستاذ المشايخ  
وكاتب  
الاستاذ الصالح  
من: مكتبة الرشد، شارع الفلكي (باب اللوز)،  
دمشق، المكتبات العربية الحديثة

أو يرث الاناث ولا يرث الذكور، ويخرج طبقة ويدخل طبقة ويهب من يشاء ويحرم من يشاء، ويتحكم بهذه الوسيلة في إرادات ناس لم يرهم في حياته ولم يعرفهم ولم يحبهم أو يكرههم... أليست هذه بدأ ممتدة من وراء القبر توجه الأحياء إلى حيث تريد، وتصرفهم عما لا تريد؟ وهنا موضع التحرز من خطأ قد يسبق إلى الأوهام، فلست أحاول أن أنتقد نظام الوقف أو غيره من النظم، وإنما أنا أسوق مثالا لسيطرة الماضي على الحاضر وخضوع إرادات الأحياء لإرادات من أدرجوا في القبور. وأمل لو كنت ذامال لسرني أن أنسى وفقاً وأن أعطى وأمنع، وأنتم على هذا وأبخل على ذلك، فإن السرور بذلك التحكم طبيعي والأمم التي لا تعرف الوقف تعرف ما يشبهه مثل الوصية، وليس الوقف إلا ضرباً من الوصية أو لعل العكس هو الأصح

ولا يتسع المقام لتفصي وجوه الحياة ومبلغ السيطرة الواقعة عليها من الماضي. ثم إن هذا لا ضرورة له فإني أظن الأمر واضحاً وفي وسع من شاء أن يقيس على ما ذكرت

وليس معنى هذا أن حياتنا تتغير وأن الحاضر صورة دقيقة من الماضي وأن عصرنا يذهب وآخر يجيء، بلا اختلاف ولا تفاوت ولا تقدم. كلا فإن القول بهذا لا يكون إلا سخافة. ونحن نشهد التطور بأعيننا في زماننا فن التمنت أن يحاول أحد أن ينكر أنه لا يزال يحدث في الدنيا. وإنما معنى ما أسلفت من الأمثلة أن الكتلة البشرية لا ترى بزمامها إلى كل من يدعوها إلى تغيير حالها وذلك بأن تقاومه وتناهضه ما وسعتم المقاومة لأنها تجري على عادة، والحرص على المادة أسهل من الأخذ بالجديد غير المؤلف، ولكنها مع ذلك تترجح شيئاً فشيئاً عن مألوفها ولكن يبطئ شديد، أو قل يبلادة إذا شئت. فلا يستطيع من يدعوها إلى الجديد أن يحملها على الأخذ به كلا، فإنها لا تستطيع ذلك ولا تقوى عليه، ولهذا ترى الدعاة إلى الجديد يسرفون في الطلب وترى الجماعة البشرية تسرف في الرفض أو المقاومة وبذلك ينتهي الأمر بالوصول إلى حد وسط معقول

وقد كانت الكتلة البشرية فيما مضى تنظر أن يجيء الدعاة إلى التغيير من أبنائها، ولكننا صرنا في زمن توثقت فيه الصلات بين الأمم قاطبة وصرنا لفرط السهولة في الانصال وسرعته كأننا